بسم الله الرحمن الرحيم

«فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا» ٢٠/٣/١٤٤٢هـ

هَذَا جُزْءُ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَذَلِكَ لَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَجَعَ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ».

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُسْوَةً حَسَنَةً، وَمِثَالًا يُحْتَذَىٰ بِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَتْ أَخْلَاقُهُ ﷺ دَلِيلًا أَكِيدًا عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ ﷺ، وَلَقَدْ شَهِدَ لَهُ اللهُ ﷻ بِعَظَمَةِ الْأَخْلَاقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ مَنْهَجٌ قَوِيمٌ، فَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾، فَأَمَرَ تَعَالَىٰ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ، وَأَنْ تَكُونَ الْمَوْعِظَةُ حَسَنَةً.

لَقَدْ كَانَتْ أَخْلَاقُ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ الْكُفَّارِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ رَأَوْا فِيهِ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، وَالرَّحْمَةَ وَالصِّدْقَ، وَالْوَفَاءَ وَالْأَمَانَةَ، وَالرِّفْقَ وَالْعَفْوَ، وَالتَّوَاضُعَ وَالْإِحْسَانَ، وَالسَّمَاحَةَ وَتَزْكِيَةَ النَّفْسِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَلَعَلَّنَا نُعَرِّجُ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: أَثَرُ عَفْوِهِ ﷺ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، سَيِّدُ

أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ كَانَ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ ... ».

الثَّانِي: أَثَرُ رَحْمَتِهِ ﷺ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

الثَّالِثُ: أَثَرُ تَوَاضُعِهِ ﷺ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ. ذَكَرَ أَبُو الْقَاسِمِ السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرَّوْضِ الْأُنُفِ»، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: خَرَجْتُ حَتَّىٰ أَقْدُمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَنِ الرَّجُلُ؟»

فَقُلْتُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَانْطَلَقَ بِي إِلَىٰ بَيْتِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ إِذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ! قَالَ: ثُمَّ مَضَىٰ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوَّةً لِيفًا، فَقَذَفَهَا إِلَيَّ، فَقَالَ: «اجْلِسْ عَلَىٰ هَذِهِ»، قُلْتُ: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَجَلَسْتُ وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْأَرْضِ، قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ... فَأَسْلَمْتُ.

الرَّابِعُ: أَثَرُ كَرَمِهِ وَجُودِهِ ﷺ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ صَارَ وَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ كَثِيرًا مِنْ سِفْلَةِ النَّاسِ يُرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ مَعَ ظُهُورِ الْفِتَنِ، وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَقَدْ رَكِبَ هَذَا الْمَرْكَبَ الْخَسِيسَ الْمُهْلِكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ قَبْلَهُ، وَلَكِنَّ الْعَجِيبَ هُوَ الْتِفَاتُ بَعْضِ طُلَّابِ الْعِلْمِ إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الَّذِي لَا يُعْرَفُ بِتَتَلْمُذٍ إِلَّا عَلَىٰ الْمُبْتَدِعَةِ الضُّلَّالِ، وَالَّذِي يُرِيدُ الْوُصُولَ إِلَىٰ مَا يُرِيدُهُ، لَا بِالْعِلْمِ، فَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لَهُ، وَإِنَّمَا بِالْوُلُوجِ فِي الْفِتَنِ وَإِشْعَالِهَا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَسْلَكٌ خَبِيثٌ مُرْدٍ لِصَاحِبِهِ فِي الْهَلَكَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ حَالَ هَؤُلَاءِ السِّقْطِ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْفِتَنَ مَطِيَّةً لِلتَّقَدُّمِ أَمَامَ النَّاسِ، وَوَسِيلَةً لِلْبُرُوزِ. فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي

«الْأَوْسَطِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِ مَوَارِدِ الظَّمْآنِ إِلَىٰ زَوَائِدِ ابْنِ حِبَّانَ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالْبُخْلُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ، وَيَظْهَرَ التُّحُوتُ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوُعُولُ؟ وَمَا التُّحُوتُ؟ قَالَ: «الْوُعُولُ: وُجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتُّحُوتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ».

وَمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، رَأَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يُقَدَّمُ فِي الْفِتَنِ، هُوَ مَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ مِمَّنْ كَانَ تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ، لَا قَدْرَ لَهُ وَلَا مَنْزِلَةَ، وَإِذَا بِالْهِرِّ يَتَوَهَّمُ نَفْسَهُ نَمِرًا.

وَلِلْأَسَفِ صَارَ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ هَؤُلَاءِ السِّفْلَةِ الْمُتَنَمِّرِينَ، وَكَمَا قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَهُزُّ عَلَيَّ الرُّمْحَ ظَبْيٌ مُهَفْهَفٌ ... لَعُوبٌ بِأَلْبَابِ الْبَرِيَّةِ عَابِثُ

فَلَوْ كَانَ رُمْحًا وَاحِدًا لَاتَّقَيْتُهُ ... وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

وَيَظْهَرُ اللَّئِيمُ الْمَغْمُورُ، فَيَطْعَنُ فِي أَشْرَافِ النَّاسِ، لِيَسُدَّ بِذَلِكَ نَقْصَهُ، وَيَعْلُوَ نَجْمُهُ.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ».

أَيُّهَا الْأُخْوَةُ: إِنَّهُ زَمَانُ الْغَرْبَلَةِ. أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ» أَوْ «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَىٰ حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا، فَكَانُوا هَكَذَا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ».